الشعر في صدر الإسلام

تواريخ مهمة:

في عام 525م (97 ق. هـ) احتل الأحباش اليمن. وبعد خمسين عاما سار أبرهة الأشرم، والي اليمن من قبل ملك الحبشة، بجيش كثيف إلى مكة وحاصرها عام 570م، ولكنه ارتدّ عنها منهزما. وكان في جيش أبرهة فِيَلَةٌ – ولم يكن أهل مكة رأوا فيلا في الجيوش من قبل – فسمّوا ذلك العام عام الفيل[1].

في ذلك العام وُلدَ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم في مكة[2].

صدع محمد ز بالإسلام ودعا الناس في مكة إلى توحيد الله ثلاث عشرة سنةً من غير أنْ يزيد المسلمون فيها على سبعين شخصا كانوا يعيشون في ضيق واضطهاد. ثم أمر الله رسولَه ز بالهجرة إلى يثرب فهاجر إليها هو ومن معه عام 622 م، فتلقاه أهل يثرب بالترحاب ودخلوا في الإسلام، ثم غيروا اسم مدينتهم وجعلوه "مدينة الرسول"[3].

انتصر المسلمون على المشركين (في معارك كثيرة أشهرها غزوة بدر (2 هـ، 624 م)، وغزوة الخندق (5 هـ)، وغزوة حُنين (8 هـ)، وفي تلك السنة، ولكن قبل غزوة حنين، فتح المسلمون مكة وعمّ الإسلام شبه جزيرة العرب، وفي سنة (11 هـ، 632 م) لحق محمد ز بالرفيق الأعلى بعد أنْ قضى ثلاثا وعشرين سنة يؤدي رسالة ربه[4].

بويع أبو بكر الصديق بالخلافة التي قضى فيها سنتين، حارب فيهما المرتدين، وبعث الجيوش للفتح فوصلت حتى العراق والشام، ولم يكن القرآن مجموعا فجمعه في مصحف واحد.

وبعده بويع عمر بن الخطاب ومكث في الخلافة عشر سنين فتح العرب في أثنائها العراق والشام ومصر وفارس، ومات مقتولا على يد أبي لؤلؤة المجوسي الفارسي سنة (23 هـ، 644 م).

وبعده بويع عثمان بن عفان، الذي أعاد جمع القرآن الكريم ورتّب سوره على النحو الذي في المصاحف اليوم، ولكن الناس نقموا عليه لأن قومه بني أمية تسلطوا على الدولة، فثاروا عليه وقتلوه آخر سنة (35 هـ)، منتصف عام (656 م)، بعدما بقي في الخلافة اثنتي عشرةَ سنةً.

تولّى الخلافة بعده عليُّ بن أبي طالب، (فاستمر الاضطراب وتوقفت الفتوح، بعد أنْ نشب الخلاف بين علي وبين والي الشام معاوية بن أبي سفيان. بعدئذ انقسم أشياع الإمام عليٍّ أنفُسُهم فأصبحوا: الشيعةَ (الذين ناصروا الإمام عليا ووقفوا موقف العداء من خصومه) والخوارجَ (الذين عدّوا النزاع بين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وبين والي الشام معاوية بن أبي سفيان نزاعا سياسيا ثم عادَوْا معاويةً وعليًّا معا). وحاول الخوارج قتل علي ومعاوية

---

[1] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، الأدب القديم، من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، لبنان، 1981، ص: 237.

[2] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ص: 237.

[3] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ص: 237.

[4] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ص: 238.

وعمرو بن العاص لأنهم كانوا – في رأي الخوارج – سببا للخلاف بين المسلمين، فلم يتأتَّ لهم إلاّ قتل عليّ (40 هـ، 661 م)[5].

(كانت أولى ثمرات الإسلام القضاءَ على العصبية القبلية، ذلك الرباط الذي كان في الجاهلية يشد الفرد إلى الفرد ويشد الجماعة إلى الجماعة على أساس من القرابة العرقية، ولما جاء الإسلام ودخل فيه العرب والعجم والروم والنبيط تبدّل الإسلام بالعصبية الجاهلية التي هي أساس "القبيلة" جامعةً روحيةً هي "الأمّة"[6].

قوّض الإسلام الحدود التي كانت قائمة في الجاهلية بين الطبقات الاجتماعية: ألغى الرقّ وجعل المسلمين إخوةً لا فضل لأحدهم على الآخر إلاّ بالتقوى. وكذلك شجب الإسلام الفروق الاجتماعيّة وحاول القضاء عليها بالزكاة: وذلك بأن جعل للفقراء حقا في أموال الأغنياء، فالزكاة في الإسلام ليست صدقة يتبرع بها الغني للفقير، بل هي حق للفقير يقتضيه من الغني بوساطة الدولة. ثم إنّ الإسلام حث الأغنياء على الصدقات المختلفة فوق ما أوجب عليهم من الزكاة[7].

موقف الإسلام من الشعر:

جهد الدارسون في إثبات بطلان الاعتقاد السائد في أن الشعر قد خبت جذوته وتقهقر في صدر الإسلام (أي بعد ظهور الإسلام)، وأن عدد الشعراء قد قل، وتضاءل عددهم، كما أن الناس عزفوا عن هذا الفن الذي طالما استأثر اهتمامهم وحبهم أمدا طويلا قبل الإسلام، فقد رأى هؤلاء المنكرون الدور الكبير الذي نهض به الشعر في الخصومة بين المسلمين والمشركين، وتُثبت أيضا استماع الرسول ز وأصحابه إلى شعر الشعراء المسلمين، وحثهم على المضي فيه دفاعا عن الإسلام وهجوما على خصومه. كما ذكر هؤلاء الدارسون ما كان للفتوح الإسلامية من أثر في إذكاء روح الشعر عند كثير من المقاتلين حتى تركوا تراثا ضخما من القصائد والمقطوعات وإن تكن مختلفة في مستواها الفني، ذلك أنها كثيرا ما كانت تفتقر إلى الناحية الفنية، لاعتمادها التشابيه والصور البلاغية المتوارثة، ولاعتمادها الأسلوب الواضح السهل الذي يجعل في كثير من الأحيان القصيدة مجرد (ناقلة أخبار) كالجريدة اليومية، وهذا إذا ما قورنت بالقصيدة الجاهلية. وربما يكون الزعم القائل بركود الشعر بعد الإسلام يستند إلى الإحساس بضعف المستوى الفني فيه، خاصة ما نجده في الشعر السياسي الذي فقد ما في الشعر الجاهلي من خيال حي واقتدار لغوي، والتصاق بالطبيعة والمزاوجة بينها وبين مشاعر الإنسان، وأنه في كثير من الأحيان أصبح أقرب إلى النظم منه إلى الشعر، بالإضافة إلى كل ذلك ذكر الدارسون أن ما ورد في القرآن الكريم من إشارات إلى الشعر والشعراء قد يثير بعض اللبس، فنظن أن القرآن قد عادى هذا الفن وقائليه، فبينوا أن الآيات التي وردت فيها هذه الإشارات[8]، لم تقصد إدانة الشعراء جميعا، وأنها استثنت المؤمنين الصالحين من الشعراء، كما أنها لم

---

[5] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ص: 239.

[6] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ص: 239.

[7] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ص: 239، 240.

[8] سورة الأنبياء، الآية 5، سورة الشعراء، الآية 224، 227، سورة يس، الآية 69، 70، سورة الصافات، الآية 36، 37، سورة الطور، الآية 29، 31، سورة الحافة، الآية 38، 41.

تتحدث عن الشعر بخير أو بشر، والآيات جميعا تنفي أن يكون النبي شاعرا، وذلك لاعتبارات كثيرة لعل أهما ارتباط ظاهرة الشعر في أذهان الجاهليين بالجنون والشياطين، إضافة إلى ما عرف عن بعض الشعراء في جاهليتهم من مسالك خلقية تتسم بكثير من اللهو والإقبال على الملذات المادية، ولو ارتبطت كل هذه الصفات بالرسول ز فإنها جديرة بأن تناقض معنى الرسالة والوحي.

وقد أجهد هؤلاء الدارسون أنفسهم لكي يوضحوا أن القرآن لم يصدر حكما بعينه على الشعر ولم يتخذ منه موقفا خاصا، وإنما نفى عن النبي ز مرة بعد مرة أن يكون شاعرا من الشعراء، وأن تكون رسالته كرسالتهم، يقول تعالى: ﴿إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين﴾[9].

أما الشعراء الذين تم ذكرهم في القرآن فهم الكفار الذين كانوا يهجون الرسول ز، ويقولون فيه الكذب والباطل، وكذلك من كان على شاكلتهم من الشعراء الذين يخوضون في الباطل ويكذبون ويهتكون الأعراض، ويقدحون في النساب، ويفرطون في المدح والقدح.

في حين استثنى القرآن الشعراء المؤمنين الملتزمين بأوامر الله ونواهيه، شريطة أن يكون شعرهم في خدمة الدين الجديد، ويظل في دائرة المباح من القول، وفي حدود الحلال من الكلام.

النبيّ والشعر:

(صرف الله النبي ز عن قول الشعر، فلم يُؤثر عنه أنه أنشأ شيئا منه وهو القادر عليه، اللهم إلاّ ما وقع له من غير قصد، كقوله يوم أحد:

أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب

وقوله وقد دميت إصبُعُه:

هل أنتِ إلاّ إصْبُعٌ دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

وإنّما اتفق له ذلك كما يتفق لكل متكلم أن يجيئ كلامه على وزن وهو لا يتعمّده)[10].

(كما ورد في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبّون﴾، وقوله: ﴿وجِفانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ راسياتٍ﴾، فإنهما يوافقان الرّمل. وقوله تعالى: ﴿من تزكّى فإنما يتزكّى لنفسه﴾، فإنه يوافق الخفيف. وقوله تعالى: ﴿ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، فإنه يوافق الوافر. وفي كتاب "إعجاز القرآن للباقلاّني أمثلة كثيرة على ذلك)[11].

(كذلك لم يكن النبي ز يقيم وزن بيت يرويه أو يتمثّل به، كما فعل ببيت طرفة، فإنه رواه هكذا:

ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلا ويأتيك من لمْ تزوّدْ بالأخبارِ

وأصلُه:

---

[9] سورة يس، الآية 69، 70.

[10] محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه، في عصري صدر الإسلام والدولة الأموية، الجزء الأول، ط 2، مصر، 1937، ص: 38.

[11] محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه، ص: 38، 39.

ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّدِ)[12]

(وأكثر ما كان يتمثل بأنصاف الأبيات حتى لا يتحقق كونها شعرا كما فعل ببيت لبيد حين قال: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ)[13].

(ولم يكن إعراض النبي ز عن قول الشعر وروايته إغماضا لشأنه، أو صرفا للعرب عنه، فإن المعروف أنه كان يقبل على الشعراء، ويحسن الاستماع لقولهم، ويثيب من يمدحه منهم، فقد خلع على كعب بن زهير بردته التي اشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء بعده، يلبسونها في الجُمَعِ والأعياد، كان يُكثر من استنشاد الخنساء في رثاء أخيها صخر، ويقول : "هِيهِ يا خُنَاسُ"، بل لقد كان يدعو إلى قول الشعر، ويستعين به في نشر دعوته، وهو الذي اتخذ حسان شاعره، وأمره أنْ يهجو كفار قريش، وكان يقول له: "شُنَّ الغارةَ على بني عبد منافٍ، فوالله لَشعرُك أشدُّ عليهم من وقع الحسام في غبش الظّلام"، وكان يثيبه ويدعو له)[14].

(قال الرسول ز: (إنّ من الشعر لحكمة)، وهؤلاء خلفاؤه ومتبعو سنّته لهم من الشعر أقوال مأثورة، وطالما دعوا إلى العناية به، وحملوا على الحرص عليه، وأخذ النشء من أولاد العرب بأدبه. فهذا عمر بن الخطاب يقول: "روُّوا أولادكم ما سار من المثل، وحسُن من الشعر". وكتب إلى أبي موسى الأشعري: "مرْ مَنْ قِبَلَكَ بتعلّم الشعر، فإنّه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرّأي، ومعرفة الأنساب". ويُروى عن السيدة عائشة أنها كانت تحفظ جميع شعر لبيد، وكانت تقول: "روُّوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم")[15].

(أخبرنا أبو العباس، عن أبي طلحة، عن بكر بن سليمان يرفع الحديث إلى عبدالله بن مسعود، قال: بلغ النّبيَّ ز أن قوما نالوا أبا بكر بألسنتهم، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، ليس أحدً منكم أمنَّ عليَّ في ذات يده ونفسه من أبي بكر، كلكم قال لي كذبتَ، وقال لي أبو بكر // صدقتَ، فلو كنت متّخذا خليلا لاتّخذت أبا بكر خليلا. ثم التفت إلى حسان فقال: هات ما قلتَ فيّ وفي أبي بكر، فقال حسان: قلتُ يا رسول الله:

إذا تـــذكّرتَ شـــجوًا مـــن أخٍ ثقـــةٍ *** فـــاذكرْ أخـــاك أبـــا بكـــرٍ بمـــا فعـــلا

التّـــاليَ الثّـــانيَ المحمـــودَ شـــيمتُه *** وأوّلُ النّـــاس طـــرًّا صـــدّق الرّســـلا

وكـــان حِـــبَّ رســـول الله، قـــد علمـــوا *** مـــن البريّـــة لـــم يعـــدل بـــه رجـــلا

خيـــرُ البريّـــة أتقاهـــا وأرْأفُهـــا *** بعـــد النّبـــيِّ، وأوْفاهـــا بمـــا حمـــلا

---

[12] محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه، ص: 39.

[13] محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه، ص: 40.

[14] محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه، ص: 40.

[15] محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه، ص: 96، 97.

فقال ز: صدقتَ يا حسّان، دعوا لي صاحبي، قالها ثلاثا)[16].

ولا شك في أن موقف الرسول ز ومن بعده الصحابة من الشعر والشعراء تجسيد لموقف القرآن الكريم، إذ رُوي عنهم جميعا أنهم ذموا الشعر ونهوا عن بعضه في مجالات معينة، وأنهم أيضا أبدوا إعجابهم بالشعر وأقبلوا على الشعراء وشجعوهم واستنشدوهم في مجالات كثيرة.

لقد كان المشركون يرمون الرسول ز تارة بأنّه شاعر، وتارة أخرى بأنّه كاهن، كما نعتوه بأنّه ساحر ﴿وقالوا إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبينٌ﴾، وردّ القرآن على دعواهم الكاذبة مراتٍ عديدةً في مثل: ﴿وقال الذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبينٌ﴾، ومثل: ﴿وإنّه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيلٌ من ربِّ لعالمين﴾. ويقول تعالى: ﴿وما تنزّلت به الشياطينُ وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنّهم عن السّمع لمعزولون﴾، ويقول أيضا: ﴿هل أنبّئُكم على منْ تنزَّلُ الشّياطينُ، تنزّل على كلّ أفّاكٍ أثيمٍ، يلقون السّمع وأكثرُهم كاذبون، والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنّهم في كلّ واد يهيمون وأنّهم يقولون ما لا يفعلون إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصّلحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾

الشعراء المسلمون والشعر:

(وإنّ من شعرائهم من وصل به الانبهار من بلاغة القرآن، والعكوف على تذوقها وتزويد النفس من محاسنها، أنْ انقطع عن قول الشعر كلبيد (وهو من المُجلِّين بين شعراء الجاهلية)، فلم يقل في الإسلام إلاّ بيتا واحدا هو:

الحمـــــد لله إذْ لـــــم يـــــأْتني أجلـــــي *** حتـى اكتســيتُ مــن الإســلام ســربالا

ومن حديث لبيد أنَّ عمر أرسل إلى عامله على البصرة أنْ سلْ لبيدا والأغلبَ ما أحدثا في الإسلام؟ فقال الأغلب:

أرجـــــزًا ســـــألتَ أمْ قصـــــيدا *** فقـــــد ســـــألتَ هيّنًـــــا موجـــــودا

وقال لبيد: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران، فزاد عمر في عطائه، فبلغ به ألفيْن. فلما وُلّي معاوية، قال: يا أبا عقيل، عطاؤك وعطائي واحد، لا أراني إلاَّ سأحطّك، قال: أو تدعني قليلا، ثمّ تضم عطائي إلى عطائك، فتأخذ العطائين جميعا)[17].

(وأما من لم ينقطع منهم عن قول الشعر، فقد تركت فيه مفاجأة القرآن أثرا من الضعف جليا أجمع النّقدة للشعر على لمسه وإحساسه، ومن هؤلاء حسان بن ثابت الذي كان في إسلامه تامّ الخضوع لأوامر الدين، فلم يهجُ إلاّ أعداء الإسلام، ولم يفخر إلاّ بالمقدار المباح، ومن الشعراء مَنْ أسلم ولكنه كان رقيق الإسلام فلم يتقيد بقيوده، ولم يتحرّج عن منهياته كالحطيئة؛ فإنه ظلّ يهجو ويشبّبُ، ولعله لم يكن يَحْفِلُ بالاستماع للقرآن كثيرا حتى يتأثّر بأدبه

---

[16] أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق محمد علي البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص: 35، 36.

[17] محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه، ص: 95.

وأسلوبه، لذلك ترى شعره في الإسلام بمثابته في الجاهلية. ولقد بلغ من تمسك الحطيئة بجاهليته أنِ استمرّ يهجو حتى حبسه عمر بن الخطاب لهجائه للزبرقان بن بدر، ثم أحضره لقطع لسانه، فلم يُنجه إلاّ شفاعة الشّفعاء وتوبته، وأخذه العهد على نفسه ألاّ يعود إلى هجاء أحد، فأعفاه عمر من قطع اللسان، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم)[18].

(ولم يكونوا يحرصون على الشعر ويدعون إليه لمحض اللهو به، ولما فيه من تأديب للنفس فحسب. بل لقد كانوا يجدون تعلمه ضروريا لفهم القرآن، فقد قال ابن عباس: "إذا قرأتم شيئا في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب")[19].

موضوعات شعر صدر الإسلام:

إن المتمعن في شعر صدر الإسلام (المخضرم) يستطيع أن يميز ثلاثة موضوعات رئيسية: **أولها** الدعوة الإسلامية وما يتصل بها مكافحة المشركين والمرتدين، **وثانيها** موضوع الفتوحات الإسلامية، **وثالثها** الفتنة التي أعقبت مقتل "عثمان بن عفان"، وقد انضوت تحت هذه المواضيع مجموعة من الأغراض الشعرية هي المدح والهجاء والفخر والرثاء.

1. شعر الدعوة الإسلامية:

واكبت المعركة الشعرية معركة السلاح بين المشركين والمسلمين، إذ وقف كل فريق يعضد محاربيه ويدافع عن عقيدته، وإذا كانت مكة قبل الإسلام لم تشتهر بشعراء فحول، فقد لمعت فيها أسماء بعد الإسلام، من خلال معاركها مع شعراء المدينة المنورة، ومن أمثالهم: أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي لهب، وقد تصدى هؤلاء الشعراء للدعوة الإسلامية يهجون ويهاجمون الرسول ز وصحابته، يؤازرهم في ذلك بعض شعراء اليهود، ويدور شعر هؤلاء في فلك القيم الجاهلية من الرغبة في الثأر، والتشفي، كما هجا هؤلاء المسلمين جميعا.

وقد تصدى لهؤلاء الشعراء ثلة من شعراء المسلمين كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، انضم إليهم بعد فتح مكة (السنة الثامنة بعد الهجرة) الشعراء الذين تابوا وأسلموا، بعد أن كانوا أعداء للدين الإسلامي، وقد كان شعرهم مليئا بالأسى والحسرة، وقصيدة كعب بن زهير "البردة" خير دليل على ذلك.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى الشعر الذي قيل في حروب الردة التي تركت أصداء في شعر الشعراء، فمنهم من وقف في صف المرتدين ساخرا من أبي بكر الصديق وخلافته، ووقف في المقابل شعراء آخرون إلى جانب أبي بكر يوجه بعضهم النصح والتحذير، والبعض الآخر يُشيد بفعل المسلمين.

2. شعر الفتوح: بعد حروب الردة انطلق العرب ينشرون الإسلام فيما حولهم من البلاد، فبدأت حركة الفتوح، ففُتحت بلاد فارس والشام ومصر، وانطلق الشعر مع هذه الفتوح يسجل معاركها، ويصور انتصارات المسلمين وبلاء فرسانهم، فلمعت في سماء الشعر أسماء شعرية لم تكن معروفة من قبل من أمثال: أبي محجن

---

[18] محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه، ص: 95، 96.

[19] محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه، ص: 97.

الثقفي الذي عرف بحبه للخمر، حتى سجنه "سعد بن أبي وقاص"، فلما كانت معركة القادسية تحايل حتى شارك فيها ثم أعيد إلى السجن، وقد قال فيها شعرا يفتخر فيه بفروسيته، وقد صور الشعراء بطولة المسلمين وحماسهم وفزع جيوش الأعداء، مادحين ومفتخرين وراثين، إلى جانب تصويرهم لما كان يُستخدم في هذه المعارك من أسلحة، وخاصة أسلحة العدو (الفرس) التي لم يكونوا على علم بها.

3 . شعر الفتنة: بعد مقتل "عثمان بن عفان" اشتعلت نيران الفتنة وتفرقت الجماعات الإسلامية أحزابا وفرقا، وظهر ذلك العداء القديم بين بني أمية وبني هاشم، والذي تجسد في (موقعة الجمل)، وموقعة (صفين)، حيث انقسم المسلمون إلى (خوارج) وهم الذين حرجوا على "علي بن أبي طالب" من جيشه، و(شيعة) وهم مناصرو "علي بن أبي طالب"، وأنصار "معاوية بن أبي سفيان"، و"المرجئة" وهم الذين فضلوا الحياد. وأثمرت هذه الفتنة كثيرا من الأشعار، فوقف بعض الشعراء مع "علي" يؤيدونه، ويبينون أحقيته بالخلافة، ووقف فريق آخر مع "معاوية" يؤيده في دعواه ويفند حجج أتباع "علي"، ويضع قضية الثأر لـ"عثمان" في المقام الأول. كما أن بعض الشعراء تناولوا بألسنتهم "أم المؤمنين عائشة " فراحوا يلومونها على خروجها من بيتها وقد أمرها الله أن تقر فيه، ويتهم بالتحريض على سفك الدماء وإشعال نيران الفتنة، وتفريق كلمة المسلمين بعد اجتماعهم على بيعة "علي بن أبي طالب".

وراح شعراء "علي" و"معاوية" يتراشقون بالقصائد كلّ يفند حجة الآخر وينقض أقواله، فتطور أكثر الشعر السياسي، وغزُر الإنتاج فيه بعدما بدأ بين شعراء الرسول ز وشعراء مكة، فاتسعت دائرته فيما بعد لتشمل شعراء الأحزاب السياسية من شيعة وخوارج ومرجئة وحزب معاوية، والشواهد الشعرية كثيرة، فنتاج هذه الفتنة وافر لمعت فيه العديد من الأسماء وتراوحت أشعار هؤلاء بين القصائد المطولة والمقطوعات القصار، وتفاوتت أشعارهم في الإتقان وفي المستوى الفني، ومهما كان من أمر نتاج هذه المعارك فهو يمثل مرحلة من فن النقائض الذي سيبلغ ذروته في العصر الأموي على أيدي الشعراء الفحول: جرير والفرزدق والأخطل.

الأغراض التي قيلت في هذه المواضيع الكبرى:

إن أهم الأغراض الشعرية التي قيلت في هذه المواضيع الرئيسية لا تخرج عن دائرة المدح والهجاء والفخر والرثاء والوعظ والإرشاد ونشر الدعوة.

(أ) الوعظ ونشر العقيدة: هو شعر الدعوة إلى الدين الجديد، حيث نظم الشاعر المسلم مواعظه شعرا، وهو ما على أن كتاب الله قد بهر هؤلاء حتى أصبح شعرهم ترجمة حرفية لآيات القرآن الكريم، أو لبعض الأحاديث النبوية الشريفة، يقول النابغة الجعدي:

الحمـــــد لله لا شـــــريك لـــــه *** مـــن لـــم يقلهـــا فنفســـه ظلمـــا

المـــولج الليـــل فـــي النهـــار وفـــي *** الليـــل نهـــارا يفـــرّج الظلمـــا

فالبيت الأول هنا صدى للآية: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[20]، والبيت الثاني ترديد للآية: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾.

ونجد الشعر الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق، واحترام تعاليم الدين، كقول الشاعر "أبي قيس صرمة":

يـــا بنـــيّ الأرحـــام لا تقطـــعوها *** وصـــلوها قصـــيرة مـــن طـــوال

واتقـــوا الله فـــي ضـــعاف اليتـــامى *** ربمـــا يستـــحل غيـــر الحـــلال

وهناك نماذج كثيرة من الوعظ والإرشاد عند الشعراء في بداية العهد الإسلامي، وهو ما يدل على مدى تأثرهم بالعقيدة الجديدة، بنشرهم المبادئ الإسلامية عن طريق أشعارهم التي تنتشر سريعا في مختلف الأماكن، فكان الشعر من الأسباب التي ساهمت في نشر تلك العقيدة.

(ب) الدعوة إلى الجهاد: وهو الغرض الذي قيل في شعر الفتوح خاصة، وفي باقي المواضيع، فالجهاد من الفرائض الهامة التي فرضها الإسلام على المؤمنين، وهو حمل السلاح والوقوف في وجه من يواجه الدعوة الإسلامية. وقد حث القرآن على الجهاد في آيات كثيرة، كما حث الرسول ز عليه، ومن بعده الصحابة، لذلك أخذ المسلمون يتسابقون لحمل السلاح ومقاتلة الأعداء، لأن للمجاهد درجة عالية، ومن يقتل في سبيل الله فهو شهيد وثوابه الجنة، فتهافت المسلمون على الجهاد، ومنهم الشعراء، وكانت نتيجة هذا الشعر الذي قيل في غرض الجهاد والدفاع عن الدين الجديد، بروز المناقضات الحادة بين الشعراء المنتمين إلى الأحزاب المختلفة، ويمكن تحديد بداية نشاط هذا الشعر السياسي (المناقضات) ببيتين لـ"ضرار بن الخطاب"، وهو شاعر من قريش، قالهما في "سعد بن عبادة" و"المنذر بن عمر" الأنصاريين:

تـــداركتَ ســـعدًا عنـــوةً فأخدتَـــه *** وكـــان شـــفاءً لـــو تـــداركتَ منـــذرا

لـــو نلتَـــه طُلّـــت هنـــاك جراحُـــه *** وكـــان حريـــا أن يهـــان ويُهـــدرا

وقد أجابه "حسان بن ثابت" شاعر الرسول ز بقوله:

لســـتَ إلـــى سعـــدٍ ولا المـــرءِ منـــذرٍ *** إذا مـــا مطايـــا القـــوم أصـــبحن ضـــمّرا

فـــلا تكـــن كالوســـنان يحلـــم أنـــه *** بقريـــة كـــسرى أو بقـــرية قيصـــرا

[20] سورة لقمان، الآية: 14.

ويستمر نشاط الشعر بين المسلمين والمشركين، ثم فيما بعد بين الأحزاب، ليبرز أكثر غرض الهجاء والمدح، إلى جانب تصوير الشعر لمعظم المعارك التي حدثت بين هؤلاء، فكان سجلا لتصوير الغزوات والمعارك. ومن شعر الجهاد:

ركـــــــضا إلــــــى الله بغـــــــير زاد *** إلا التـــــــقى وعمـــــــــل المـــــــعاد

والصـــــبرِ فـــي الله علـــى الجهـــــاد *** وكـــــــل زاد عـــــــرضة النــــــــفاد

ومما ورد عن حسان قوله في تصوير معركة بدر:

وخبّـــــر بالـــــذي لا عيـــــب فيـــــه *** بصـــــدق غيـــــرِ إخبـــــار الكـــــذوبِ

بمـــــا صـــــنع المليـــــك غـــــداة بـــــدر *** لنـــــا فـــي المشـــــركين مـــــن نصـــيب

إضافة على كل الأشعار التي قيلت في الفتوحات الإسلامية، وقف الشعراء يحثون بقصائدهم ويدعون المسلمين إلى الجهاد بقصائد حماسية مدوية تصور جهادهم وبسالتهم.

(ج) المدح والفخر: وهما من أغراض الشعر الجاهلي، ولكن القيم التي كانت تدفع الشاعر الجاهلي إلى هذين الغرضين تختلف كثيرا عن القيم التي زرعها الإسلام في نفوس المسلمين، لذلك نرى الفخر قد اتخذ في الإسلام منحى جديدا يتوافق مع العقيدة الدينية الجديدة، فـ "علي بن أبي طالب" مثلا يفتخر في شعره بصلته بالرسول ز وبسبقه أهله إلى الشهادة، والدخول في الإسلام، يقول:

محمـــــــد النبـــــي أخـــــي وصـــــهري *** وحمـــــــــزة سيـــــــــد الشهـــــــــداء

أما المديح فقد ظل محافظا على مكانته في الدب الإسلامي رغم تكرر الصيغ الشعرية القديمة فيه، إلا أنه ظل غرضا متداولا بكثرة، ومعظم شعر المدح قيل في مديح الرسول ز، وأن مضامينه هي الفخر برسالة الإسلام، فبدلا من توزيع الكلام بغير حساب على أصحاب النفوس الضعيفة والمبالغة والكذب في المدح، توجه الشعراء إلى المدح الذي يقول ما في الشخص دون زيادات أو مبالغات، ومن قصائد المدح قصيدة "كعب بن زهير" (البردة)، وكذلك الشعر الذي قاله "حسان بن ثابت" في مدح الرسول ز، ومنه قوله:

أغـــــــرٌّ، علـــــيه للنـــــــبوة خاتـــــم *** مـــــن الله مـــــن نـــــور يـــــلوح ويشـــــهدُ

وضـــم الإلـــه اســـم النـــبي إلـى اســـمه *** إذ قـــال فـــي الخمـــس المـــؤذن: أشـــهدُ

(د) الرثاء: إذا كان الرثاء في الجاهلية ذرفا للدموع، وأسى في القلوب، وحدادا على الأموات، وندبا ووعدا بالثأر والانتقام، فإن الرثاء في الإسلام يختلف في بعض جوانبه، فالشاعر الإسلامي ملتزم بعقيدة دينية تحدد له

أبعاد الرثاء ضمن المعاني والقيم الإسلامية، وقد تسابق المسلمون إلى الموت والاستشهاد في الجهاد، فكان الموت مفخرة من المفاخر التي يعتز بها المسلم، ومثال ذلك "الخنساء" أميرة شعر الرثاء في الجاهلية. لما أدركت وحضرت حرب القادسية (بين المسلمين والفرس)، ومعها بنوها الأربعة، حثتهم على القتال، ولما استشهدوا جميعا قالت: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم). ورغم ذلك فإن فقدان العزيز يؤثر في النفس البشرية، وإن قل البكاء والنحيب فالتعبير عنه لا مناص منه، فقد رثى المسلمون شهداءهم، وبكى المشركون قتلاهم، ومن الذين رثوا شهداء "غزوة أحد"، كعب بن مالك الذي قال:

وقتـــلاهم فـــي جنـــان النعـــيم *** كـــــرامُ المـــــداخل والمخـــــرج

بمـــا صـــبروا تحـــت ظـــل اللـــواء *** لـــــواء الرســـــول بـــــذي الأضـــــوج

كما عبر معظم الشعراء المخضرمين عن حزنهم بعد موت الرسول ز، ومن قصائد الرثاء التي قالها "حسان بن ثابت" عن الرسول ز:

بطيبـــــة رســـــم للرســـــول ومعبـــــد *** منيـــر، وقـــد تعـــفو الرســـوم وتهمـــد

ولا تنمحـــي الآيـــات مـــن دار حرمـــة *** بهـــا منبـــر الهـــادي الـــذي كـــان يصـــعد

وبعد وفاة الخلفاء الراشدين جاء الشعراء يرثونهم معددين فضائلهم، وصلتهم الوثيقة بالرسول ز، ويعددون مآثرهم التي قدموها للإسلام والمسلمين، ويعبرون عن سخطهم واستيائهم من الأجواء التي وصل إليها المسلمون بعد مقتل "عثمان بن عفان".

تعبر "ليلى الأخيلية" عن مشاعرها بعد مقتل "عثمان":

أبعـــد عثمـــان ترجـــو الخيـــر أمتـــه *** وكـــان آمـــن مـــن يمشـــي علـــى ســـاق

خليفـــــة الله أعـــــطاهم وخـــــولهم *** مـــا كـــان مـــن ذهـــب جـــم وأوراق

(هـ) الهجاء: تعرض شعراء الجاهلية بهجائهم لذكر العيوب والعورات، فازدهر كثيرا، وأصبح له أثره الكبير في نفوس الناس، ولما جاء الإسلام استمر الهجاء كغرض، من خلال أشعار القرشيين الكفار، وأ\عار المدافعين عن الدين، بعد أن سمح لهم الرسول ز بالرد على تهجمات شعراء قريش، ومن أشهرهم "حسان بن ثابت"، و"كعب بن مالك"، و"عبد الله بن رواحة". يقول "حسان":

لنـــا فـــي كـــل يـــوم مـــن معـــدٍّ *** ســـــباب أو قـــــتال أو هـــــجاءُ

فـــنحكم بـــالقوافي مـــن هجانـــا *** ونضـــرب حـــين تخـــتلط الـــدماءُ

لقد عج عصر صدر الإسلام بالحرب الكلامية، وخاصة الشعر الهجائي بين المسلمين والكفار، ثم فيما بعد بين شعراء الأحزاب السياسية، وأخذ في أكثر الأحيان صورة المناقضات الشعرية، وفي بعض الأحيان صورة المزاجرات، والمناقضة تعني أن ينقض الشاعر ما قاله خصمه بضد ما جاء به من حيث الموضوع، وأن يلتزم بقافية القصيدة وبحرها ورويها، ومن أمثلة ذلك، قول "أبي سفيان":

أَرَهْـــطَ ابـــن أكَّـــالٍ أجيبـــوا دعـــاءه *** تعاقـــدتم، لا تســـلموا الســـيد الكهـــلا

فـــإن ابـــن عمـــرٍو لئـــامٌ أذلـــةٌ *** لـــئن لـــم يكفـــوا عـــن أســـرهم الكـــبلا

فأجابه "حسان بن ثابت":

لـــو كـــان ســـعدُ يـــوم مكـــة مطلقـــا *** لأكثـــر فـــيكم قبـــل أن يُؤســـر القـــتلا

بعضـــبِ حســـامٍ، أو بصـــفراء نبعـــة *** تحـــن إذا مـــا أنبضـــت، تحفـــر النـــبلا

وهذا شيء من نقائض صدر الإسلام، ومضمونها الهجائي لا يختلف عما كان عليه في العصر الجاهلي، ولم يقتصر هذا النوع على الشعراء فحسب، بل شاركت فيه الشاعرات أيضا. تقول "هند بنت عتبة" زوجة "أبي سفيان" معبرة عن حقدها على المسلمين لقتلهم ذويها في "بدر"، ومفتخرة بانتصار قومها في "أحد":

نحـــن جزيـــناكم بيـــوم بـــدر *** والحـــرب بعـــد الحـــرب ذات ســـعرِ

شـــفيتُ نفســـي وقضـــيتُ نـــذري *** شفـــيت وحشـــي غلـــيل صـــدري

وترد عليها "هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب":

خزيـــتِ فـــي بـــدر وبعـــد بـــدر *** يـــا بنـــتَ وقَّـــاعٍ عظـــيمِ الكفـــرِ

حسان بن ثابت الأنصاري:

إنَّ الـــذَوائِبَ مِـــن فِهـــرٍ وَإِخـــوَتَهُم *** قَـــد بَيَّنـــوا سُـــنَّةً لِلنـــاسِ تُتَّبَـــعُ

يَرضـــى بِهـــا كُـــلُّ مَـــن كانَـــت سَـــريرَتُهُ *** تَقـــوى الإِلَـــهِ وَبِـــالأَمرِ الَّـــذي شَـــرَعوا

قَـــومٌ إِذا حـــارَبوا ضَـــروا عَـــدُوَّهُمُ *** أَو حـــاوَلوا النَفـــعَ فـــي أَشـــياعِهِم نَفَعـــوا

سَـــجِيَّةٌ تِلـــكَ مِـــنهُم غَيـــرُ مُحدَثَـــةٍ *** إِنَّ الخَلائِـــقَ حَقّـــاً شَـــرُّها البِـــدَعُ

لا يَرقَـــعُ النـــاسُ مـــا أَوهَـــت أَكُفُّهُـــمُ *** عِنـــدَ الـــدِفاعِ وَلا يوهـــونَ مـــا رَقَعـــوا

إِن ســـابَقوا النـــاسَ يَومـــاً فـــازَ سَـــبقُهُمُ *** أَو وازَنـــوا أَهـــلَ مَجـــدٍ بِالنَـــدى مَتَعـــوا

إِن كـــانَ فـي النـــاسِ سَـــبّاقونَ بَعـــدَهُمُ *** فَكُـــلُّ سَـــبقٍ لِأَدنـــى سَـــبقِهِم تَبَـــعُ

وَلا يَضِـــنّونَ عَـــن مَـــولىً بِفَضـــلِهِم *** وَلا يُصـــيبُهُمُ فـــي مَطمَـــعٍ طَبَـــعُ

لا يَجهَلـــونَ وَإِن حاوَلـــتَ جَهلَهُـــمُ *** فـي فَضـــلِ أَحلامِهِـــم عَـــن ذاكَ مُتَّسَـــعُ

أَعِفَّـــةٌ ذُكِـــرَت فـــي الـــوَحيِ عِفَّـــتُهُم *** لا يَطمَعـــونَ وَلا يُـــرديهِمُ الطَمَـــعُ

وله أيضا:

عـــدمنا خيلَنـــا إنْ لـــمْ تروْهـــا *** تثيـــر النّقـــع موعـــدُها كـــداءُ

يبـــارين الأســـنّةَ مصـــغياتٍ *** علـــى أكْتافهـــا الأســـلُ الظِّمـــاءُ

تظـــلّ جيادُنـــا متمطِّـــراتٍ *** تلطِّمُهُـــنَّ بـــالخُمُرِ النِّســـاءُ

فإِمَّـــا تُعرضـــوا عنّـــا اعتمرْنـــا *** وكـــان الفـــتحُ، وانكشـــف الغطـــاءُ

وإلاَّ، فاصـــبروا لجـــلادِ يـــومٍ *** يُعـــين الله فيـــه مَـــنْ يشـــاءُ

وقـــال الله قـــد يسَّـــرْتُ جنـــدًا *** هـــم الأنصـــارُ، عُرضـــتُها اللقـــاءُ

لنـــا فـــي كـــلِّ يـــومٍ مـــنْ مَعَـــدٍّ *** قتـــالٌ، أو سِـــبابٌ، أو هجـــاءُ

فـــنُحْكِمُ بـــالقوافي مـــنْ هجانـــا *** ونضـــربَ حـــين تختـــلط الـــدِّماءُ

وقـــال الله قـــد أرســـلْتُ عبـــدا *** يقـــول الحـــقَّ، إنْ نفـــعَ الـــبلاءُ

شـــهدتُ بـــه، وقـــومي صـــدّقوه، *** فقلـــتم: مـــا نجيـــبُ، ومـــا نشـــاءُ

وجِبريـــــلٌ، أمـــــينُ الله فينـــــا *** وروحُ القـــدسِ لـــيس لـــه كِفـــاءُ

ألا أبْلـــغْ أبـــا ســـفيانَ عنّـــي *** فأنـــتَ مُجـــوَّفٌ، نَخِـــبٌ، هـــواءُ

هجـــوتَ محمّـــدًا، فأجبـــتُ عنـــه *** وعنـــد الله فـــي ذاك، الجـــزاءُ

أتهجـــوه، ولســـتَ لـــه بكفـــؤٍ *** فشـــرُّكما لخيركمـــا الفـــداءُ

هجـــوتَ مبارَكًـــا بـــرًّا حنيفًـــا *** أمـــينَ الله شـــيمتُه الوفـــاءُ

فمَـــنْ يهجـــو رســـولَ الله مـــنكم *** ويمدحُـــه، وينصـــرُه، ســـواءُ

فـــإنَّ أبـــي ووالـــدَه وعِرضـــي *** لعـــرضِ محمّـــدٍ مـــنكم وِقـــاءُ

القصيدة 31 بيتا، رُوِيَ أنّ حسانا قال العشرة أبيات الأولى في الجاهلية، وأكملها في الإسلام، وقيل هي ممّا قيل من الشعر في يوم الفتح.

ونشـــرَبُها، فتتركنـــا ملوكًـــا *** وأسْـــدًا، مـــا ينهنهنـــا اللِّقـــاءُ

تطبيق (مادة النص الأدبي القديم: شعر)
السنة الأولى، المجموعة الأولى

الشعر الإسلامي

قال حسان بن ثابت الأنصاري:

إِنَّ الـــذَوائِبَ مِـــن فِهـــرٍ وَإِخـــوَتَهُم *** قَـــد بَيَّنـــوا سُـــنَّةً لِلنـــاسِ تُتَّبَـــعُ

يَرضـى بِهـا كُـلُّ مَـن كانَـت سَـريرَتُهُ *** تَقـوى الإِلَـهِ وَبِـالأَمرِ الَّـذي شَـرَعوا

قَـــومٌ إِذا حـــارَبوا ضَـــروا عَـــدُوَّهُمُ *** أَو حـاوَلوا النَفـعَ في أَشـياعِهِم نَفَعـوا

سَـجِيَّةٌ تِلـكَ مِـنهُم غَيـرُ مُحدَثَـةٍ *** إِنَّ الخَلائِـقَ حَقّـاً شَـرُّها البِـدَعُ

لا يَرقَـعُ النـاسُ مـا أَوهَـت أَكُفُّهُـمُ *** عِنـدَ الـدِفاعِ وَلا يوهـونَ مـا رَقَعـوا

إِن سـابَقوا النـاسَ يَومـاً فـازَ سَـبقُهُمُ *** أَو وازَنـوا أَهـلَ مَجـدٍ بِالنَـدى مَتَعـوا

إِن كـانَ في النـاسِ سَـبّاقونَ بَعـدَهُمُ *** فَكُـلُّ سَـبقٍ لِأَدنـى سَـبقِهِم تَبَـعُ

وَلا يَضِـنّونَ عَـن مَـولىً بِفَضـلِهِم *** وَلا يُصـيبُهُمُ فـي مَطمَـعٍ طَبَـعُ

لا يَجهَلـونَ وَإِن حاوَلـتَ جَهلَهُـمُ *** فـي فَضـلِ أَحلامِهِـم عَـن ذاكَ مُتَّسَـعُ

أَعِفَّـةٌ ذُكِـرَت فـي الـوَحيِ عِفَّـتُهُم *** لا يَطمَعـونَ وَلا يُـردِيهِمُ الطَمَـعُ